

٢ - الفتنة الكبرى

للاستاذ محمود محمد شاكر

—>>>◀◀◀—

وإذن ، فقد أراد الدكتور طه أن يقول إن الفتنة الكبرى التي أفضت إلى قتل عثمان إنما كانت « فتنة عربية نشأت من تراحم الأغنياء على النبي والسلطان ، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء » في ص ١٠٩ فن أجل تحقيق هذه الكلمة الكبيرة ركب كل مركب في تصوير الحياة الإسلامية الأولى بعد الفتح بالصورة التي تنتهي به إلى هذا الغرض وحده دون سواه ، وهو النبي والنسب والسلطان ، وتراحم الأغنياء على النبي والمال والسلطان ، وحسد العامة العربية لأصحاب النبي والمال والسلطان . وأنا — كما قلت آنفاً — لن أحاول أن أنقض هذه الصورة ، ولن أعمل عملاً في الرد عليها إلا بمقدار ما ينبغي في سياق التحقيق التاريخي لناحية من نواحي هذه الفتنة . ولكن الدكتور كشف عن هدف آخر حين جاء ممرض هذه الفتنة ، فنفي خبر عبد الله بن سبأ اليهودي ، وخبر الكتاب الذي كتب فيه الأمر بقتل رؤوس وفد مصر . وهذا الهدف هو أن ينفي عن اليهود الشركة في دم عثمان ، والتحرير على قتل الإمام ، فركب مركباً وعمراً خالف فيه أسلوب العلماء في جرح الأخبار ، وكذب الرواة في شيء بنير برهان ، وصدقهم في شيء آخر بنير برهان أيضاً ، وهو نفسه ينفي في كتابه على « الذين يكذبون الأخبار التي نقلت إلينا ما كان بين الناس من فتنة واختلاف » فقال في ص ١٧٢ : « فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد على أن تكذب التاريخ الإسلامي كله منذ بعث النبي ، لأن الذين رووا أخبار هذه الفتن ، هم أنفسهم الذين رووا أخبار الفتح وأخبار المغازي وسيرة النبي والخلفاء . فما ينبغي أن نصدقهم حين يروون ما يروون ، وأن نكذبهم حين يروون ما لا يعجبنا . وما ينبغي أن نصدق بعض التاريخ ونكذب بعض الآخر ، لا لشيء إلا لأن بعضه يرضينا وبعضه يؤذينا . » بيد أن الدكتور طه نفسه ، قائل هذا الكلام ، قد فعل ذلك فكذبهم حين روى الرواة ما لا يعجبه ، وحين رووا ما يؤذيه . وفعل ذلك أيضاً فصدقهم حين رووا ما يروقهم ، وحين رووا

ما يرضيه . فإن الذين رووا أخبار النبي والمال والسلطان ، هم الذين رووا أخبار عبد الله بن سبأ اليهودي وأخبار الكتاب الأمر بقتل وفد مصر ، فلم أخذ شيئاً بنير برهان ، ونفي أخاه بنير برهان ؟ والنبي ، البين هو أن الدكتور الجليل أراد كما قال في ص ١٣٤ أن يكبر المسلمين في صدر الإسلام « عن أن يثبت بدبهم وسياساتهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبيل من صنماء وكان أبوه يهودياً ، وكانت أمه سوداء ، وكان هو يهودياً ثم أسلم لا رغباً ولا رهباً ، ولكن مكرراً وكيداً وخداعاً » . وهذا قصد حسن ونية جميلة ، ولكن الحق أحسن منهما وأجمل . وليس يجمل بنا ولا بالدكتور طه أن بغالط في الحق لشيء يراه هو أو يراه نحن حسناً جميلاً . والتاريخ لا يكتب بالتحكم ، وإنما يكتب بالرواية ، ثم بالاستدلال ، ثم ببذل الجهد في سد الفجوات ، وسبيل ذلك أن نأخذ من الماضي أسباباً وعللاً وحوادث ذات خطر ، فإن استقامت أن تمتد معك إلى الحاضر الذي تؤرخه ، فهي حقيقة بأن تكون شيئاً من التاريخ يوشك أن يكون حقاً كماه أو بعضه .

ولست أحب أن أعلم الدكتور طه ، ولكني سأضع بين يديه حقائق لا يدخلها الرب أبداً ، ثم أسأله أن ينظر فيها ، وأن يحكم هو بيني وبينه . وسأختصر القول اختصاراً ، فإن أكثر مادة هذا الحديث مما لا أظن بالدكتور أن يفهمه أو يفهم عنه . فلنعد إلى حديث قديم كان قبل البعثة بقليل ، وكان شديد الخطر في تاريخ العرب ، وكان يوشك أن ينتهي إلى حديث جليل في تاريخ مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد كان يسكن هذه البلدة الكريمة بنو أم واحدة وأب واحد من قبائل الأزد ابن القوث : أمهم قيلة ، وأبوها حارثة بن ثعلبة ، وهؤلاء هم لأوس والخزرج ، وكان يعيش بينهم هذا الجليل من اليهود الذي سكن جزيرة العرب ، أو سكن المدينة ، فكان من خبر ذلك شيء لم يكن مثله مثلاً بين بني هاشم وبني أمية ، وهو الحرب المتطاولة بين هذين الحيين اللذين ولدتهما أم واحدة وأب واحد ، ويسكنان معاً بلدة واحدة . وظل هذا القتال بين الحيين متجدد النيران إلى أن كان « يوم بُعث » وهو كما قال ابن سعد ج ٣ قسم ٢ ص ١٣٥ : « آخر وقعة كانت بين الأوس والخزرج في الحروب

يجلس إليهم فيذكر « يوم بياض » وما كان قبله ، وينشدهم
بعض ما كانوا تناولوا فيه من الأشعار . فيقبل هذا اليهودي ،
فإذا الجماعة المؤتلفة على الإسلام تتنازع وتتفاخر ، فيتوالب
رجلان من الأوس والخزرج ، فيقول أحدهما لصاحبه : « إن
شتمت رددناها ، لأن جذعة » ، ويتضرب الفريقان جميعاً ويقولون :
« قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة (بمنون مكاناً بعينه) » ويتداعون :
« السلاح السلاح » . ويخرجون إلى موعدهم ، فيبائن رسول الله
صلى الله عليه وسلم الخبر ، فيخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين
من أصحابه حتى إذا جاءهم قال : « يا معشر المسلمين ! الله الله !
أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام
وأكرمكم به ، وقطع عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من
الكفر وألف به بينكم ؟ » فيعرف الأنصار ، أوسهم وخزرجهم ،
أنها نزعاً من الشيطان وكيد من « عدوهم » ، فييكونون
ويتمانقون ، ثم ينصرفون مع رسول الله سامعين مطيعين قد
أطاعوا الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس اليهودي . (عن
ابن اسحاق وغيره) .

وأنا ألت أروى لك هذا إلا لتقف على كيد يهود كيف كان ؟
ولتعرف كيف كان ترفقهم إلى إثارة المداوة بين هذين الحيين
منذ قديم ؟ ولتتظر لم كانوا يحبون أن تغل هذه المداوة حية
متوقفة لياً كلوا من ثمراتها مالا وغلبة وسلطاناً على العرب ؟
ولتقارن هذا كله بما لا يزال يجري إلى أيامنا هذه على يد هذه
الشرذمة الخبيثة من بني إسرائيل !

ثم ينزل الله جلت أمماؤه في أمر هذه الفتنة يخاطب المسلمين
الذين كان رسول الله بين أظهرهم ، لم يمّت بعد : « يا أيها الذين آمنوا
إن نُطليعوا قريباً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم
كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تلى عليكم آيات الله وفيكم
رسوله ، ومن يتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

وإذئذ ، فتحن لا نستطيع أن نكبر أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج عن أن يطهروا قريباً
من اليهود حتى كادوا يردونهم بعد إيمانهم كافرين ، ولا أن نزههم
عن ذلك وهم نُتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله ! كما فعل الدكتور
طه حين أراد أن يزه أهل الصدر الأول من الإسلام في سنة ١٩٣٣

التي كانت بينهم . . . وكانت هذه الوقعة ورسول الله صلى الله
عليه وسلم بمكة قد تنبأ ودعا إلى الإسلام ، ثم هاجر بعدها بست
سنين إلى المدينة » .

ونشأة هذه المداوة المحيية بين الأخوين : الأوس والخزرج ،
واقتمالها هذا القتال المر العنيف حقبة متطاولة ، ودخول اليهود
في الحلف ، بعضهم مع الأوس وبعضهم مع الخزرج ، لا يصيبهم
من أذى القتال بين هذين الحيين الأخوين إلا القليل ، وتدابيرهم
باسم اليهودية إذا حزب الأمر ، فيكونون بدأ واحدة على هذه
الرب ، ليس له معنى إلا أن تكون هذه اليهود هي التي ارتت
الحرب والمداوة بينهما لتؤثقل في هذه الأرض أموالا وأطاماً
وحصوناً تكون لها عدة وقوة ، وتظهرها على أهل البلاد المالكين
لها ، وتصرف وجه هؤلاء القوم عن الزراعة والتجارة وتسمير
الأموال ، وتبقى يهود هي صاحبة لزراعة والتجارة وتسمير الأموال
بالزبا وما كل السحت . وهذا عمل يهود في كل جيل ، وفي كل
أمة ، وفي كل زمان إلى يوم الناس هذا .

ثم لا يلبث أن يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم رهطاً من
الخزرج عند العقبة ، وكانت يهود كما قال ابن اسحاق ، قد عزوهم
ببلادهم ، أي غلبهم عليها واستأثروا بها ، فلما دعاهم رسول الله
إلى الإسلام قالوا له : « إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من المداوة
والشر ما بينهم ، فمسي أن يجهمهم الله بك . فستقدم عليهم
وندعوم إلى أسرك ونمرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا
الدين ، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك » . فيؤلف
الله قلوب الأوس والخزرج ، وهما الأخوان ، على الإسلام فينشو
فيهما فشواً ظاهراً . ولا يلبث رسول الله أن يهاجر إلى المدينة ،
فلا يبقى حي من الأوس والخزرج إلا دخله الإسلام وظاهر فيه .
فيمر شأس بن قيس من يهود بني قينقاع - وكان شيخاً عظيم
الكفر شديد الضمن على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر
من أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج ، فيتميزه ما رأى
من ألفهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم
من المداوة في الجاهلية ، فيقول : « قد اجتمع ملائكتي قيلة
(يعني الأوس والخزرج) بهذه البلاد ! لا والله ما لنا معهم إذا
اجتمع ملائمتي بها من قرار » . فيأمر فتى شاباً من يهود أن

أهل الكتاب آمنوا بالله أنزل على الذين آمنوا رُجِه النهار
واكفروا آخره لعلمهم يرجعون .

وهذه الآية وسبب زولها يدل دلالة صريحة على أن أهل الإسلام
الأول ، كانوا لا يزالون يمدون الحلف بينهم وبين يهود حلفاً
صادقاً لا غش فيه ، وأن يهود كانت تظهر المودة وتحنق أشد
العداوة وأشد النفيظ على هؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه
وسلم ، وأنهم كانوا يتخافتون بهذه المداوة ، وأنهم كانوا يمدعون
هؤلاء المؤمنين بإظهار الإيمان وإبطان الكفر ، حتى إذا صدقهم
بعض المؤمنين عادوا فأظهروا الكفر لينتوهم ويخدعهم عن
دينهم . فإذا صح هذا ، وهو صحيح ، ورسول الله بين أظهرهم ،
فهو أحق بالصحة في سنة ٣٥ من الهجرة ، لا تكبر أهل الصدر
الأول من الإسلام عن أن يقعوا في مثله وفي أشد منه .

ويستطيع الدكتور طه ، ويستطيع كل من أطاق القراءة ،
أن يقرأ كتب السير والغازي منذ هاجر رسول الله من مكة إلى
المدينة ، إلى يوم دعاه ربه إلى الرفيق الأعلى ، فيسجد أنه لا تكاد
تنتهي وقعة بدر الكبرى بالنصر الأعظم لجند الله حتى يسلم رأس
النفاق عبد الله بن أبي سلول وجماعته من المنافقين ، وكانوا
أعران يهود ، ومن يومئذ ينفجر النفاق ويستشري خطره ، حتى
تنزل فيه الآيات الكثيرة ، وحتى يطلع الله رسوله على خبايا
نفسهم وعلى أعيانهم . ومن يومئذ يجاهر بعض اليهود بنقض
العهد الذي كتبه رسول الله بينه وبينهم عند مقدمه المدينة ،
فيكون مقتل اليهودي أبي عَنَفَك ، ثم تكون غزوة يهود بني قينقاع ،
ثم استماتة أبي سفيان بن حرب يهود بني النضير ينقلون إليه
أخبار نبي الله . ثم يكون ما كان في يوم أحد من خروج عبد الله
ابن أبي ابن سلول المنافق مع رسول الله حتى إذا بلغ رسول الله
أحدًا انحزل ابن أبي في كتيبة أشياعه وهو يقول : « أيسبني
ويطبع الولدان ؟ » ، ثم يهزم المسلمون ، فإذا عادوا إلى المدينة
سُميت بهم عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه المنافقون ، وأظهرت
اليهود القول السوء يقولون : ما محمد إلا طالع ملك ما أصيب
هكذا نبي قط ما أصيب في بدنه ، وأصيب في أصحابه : ثم لا تمضي
خمسة أشهر حتى يحاول يهود بني النضير قتل رسول الله غدرًا
حين جاء منازلهم ، فأتمروا أن يطرحوا عليه صخرة من فوق البيت

من الهجرة بمد أن قبض الله إليه نبيه بأكثر من عشرين سنة ،
وبمد أن نشأت ناشئة من الشباب لا يدعى أحد أنهم جيمًا كانوا
أحرص على إيمانهم من أصحاب محمد وأنصاره الأولين . وهذا خبر
واحد روته ، فإن شئت أن أروي الأخبار كلها لما وسمي كتاب
أشرح فيه أمر هذه الفتن التي أرثتها اليهود في عهد رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ولا يسمي أن أنص على كل آيات كتاب الله
التي نزلت في أخبار هذه الفتن . وحسبي أن أذكر من نسي أن
أخبار المنافقين والآيات التي نزلت فيهم ، كانت كلها في المدينة
لا في مكة ، وأن ذلك دليل على أن النفاق كان حيث تكون يهود ،
وأن « الأعراب » لم يذكروا إلا في السور المدنية مقرونًا بالنفاق
والمنافقين ، وأن قول الله تعالى في سورة براءة (الأعراب أشد
كفرًا ونفاقًا) نزلت في بني أسد وغطفان ، وهم كانوا حلفاء يهود
في الجاهلية وفي زمان الإسلام . وهذا نبي أرجو أن يتذكره
الدكتور حتى نعود إليه .

ولم يكن كل هذا المكر والكيد والإيقاع عملاً جاء عفو
الخطأ من يهود ، ولا كان مأتاه من إساءة لحقتهم من حلفائهم
الأوس والخزرج من المؤمنين غير المنافقين ، بل هو شر انطوت
عليه يهود لا يزالهم ولو أحسن السلوك إليهم ، وهو حقد
وضئينة وكفر وعدوان على أهل هذا الدين ، وهم كما وصفهم الله
أشد الناس عداوة للذين آمنوا بمحمد صلوات الله عليه . ودليل
ذلك أن رجالا كثيرا من الأوس والخزرج كانوا يواصلون رجالا
من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية ، فكانوا
يصفونهم المودة بهذه الأسباب ، ويستنصحوهم في أمورهم دون
أن يشكوا فيهم أو يتوجسوا منهم خيفة . فأزل الله في محكم
كتابه بينهم عن فعل ذلك : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا
بطانة من دونكم لا يآلؤنكم خيالاً ودُّوا ما عنتم قد بدت
البغضاء من أفواههم وما تخنق صدورهم أكبر ، قد بينا لكم
الآيات إن كنتم تعلمون . ها أنتم أولاد تحبونهم ولا يحبونكم
وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا
عليكم الأنامل من النفيظ ، قل مؤنوا بغيركم إن الله عليم
بذات الصدور . » هؤلاء الذين قالوا آمنا هم الذين نزلت فيهم
الآية السابقة قبل هذه في سورة آل عمران : « وقالت طائفة من